

## الفصل الأول

شَء عام ١٩٦٧ كان ثقيلاً يرفض الرحيل ويزاحم الربيع الذي يحاول الإطلال بشمس المشرقة الدافئة، فيدفعه الشتاء بغيوم تتلبد بالسماء، وإذا بالمطر ينهمر غزيراً من السماء فيغرق تلك البيوت البسيطة في مخيم الشاطئ للاجئين بمدينة غزة وتجري السيول في أزقة المخيم فتفتح البيوت وتزاحم ساكنيها في غرفهم الصغيرة ذات الأرضيات المنخفضة عن مستوى الشارع القريب.

مراراً وتكراراً تدفقت مياه سيول الشتاء إلى ساحة دارنا الصغيرة ثم تدفقت إلى داخل هذه الدار التي تسكنها عائلتنا منذ بدأ الحال يستقر بها بعد أن هاجرت من بلدة الفلوجة في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، وفي كل مرة يدب الفزع بي وبإخواني الثلاثة وأختي وخمسهم كانوا يكبرونني سناً فيهب أبي وأمي إلينا ليرفعونا عن الأرض، ولترفع أمي الفراش قبل أن تبلله المياه التي اقتحمت علينا بيتنا البسيط، ولأنني كنت الأصغر كنت أتعلق في رقبة أمي إلى جوار أختي الرضيعة التي كانت في العادة على ذراعيها في مثل هذه الحالات.

مرات عديدة استيقظت ليلاً على أيدي أمي تزيحني جانباً وتضع على فراشها إلى جوارني تماماً (طنجرة) الألمنيوم أو صحن الفخار الكبير لتسقط فيه قطرات الماء التي تتسرب من التشقق في سقف القرميد الذي يغطي تلك الغرفة الصغيرة، طنجرة هنا وصحن من الفخار هناك وإناء ثالث في مكان آخر. أحاول في كل مرة النوم فأفلح أحياناً ثم أستيقظ على صوت قطرات الماء وهي ترتطم بما تجمع من مياه في ذلك الإناء بصورة منتظمة، وعندما يمتلئ الوعاء أو يشارف على الامتلاء يصبح رذاذ الماء يتراشق عليه مع كل قطرة، فتهب أمي لتضع وعاءً جديداً مكان الذي أمتلأ وتخرج لتسكبه خارج الغرفة.

كنت في الخامسة من عمري وفي صبيحة يوم من أيام الشتاء تحاول شمس الربيع أن تحتل مكانها الطبيعي لتزيل آثار هجوم الشتاء الليلي الكالح على المخيم، فيأخذ أخي محمد ابن السابعة بيدي ونسير في طرقات المخيم إلى أطرافه حيث يربط معسكر للجيش المصري.